

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 307-314

براديفم الذكورة وهشاشة الحداثة في الرواية السير غيرية
مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية أتمودجا-

The patriarchy Paradigm and the Fragility of Modernism in the Novel Autobiographical –Mei Nights Isiskopia Three hundred nights and one night. In the hell of alosforia-

د. نورالدين جويني

n.jouini@univ-dbk.m.dz

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/07/22

تاريخ الاستلام: 2025/01/01

ملخص: تحاول هذ المقال الحديث عن نوع من أنواع الفن الروائي المتمثل في الرواية السير غيرية، وتأتي هذه الرؤية كاستراتيجية أردنا من خلالها أن نخرج الرواية السير غيرية من كونها فنا يحكي عن الآخرين إلى نوع من الأركيولوجيا مهمته الحفر في أعماق المجتمع ولذا لن نستغرب هنا أن واسيني الأعرج في رواية مي ليالي إيزيسكوبيا سعى بالدرجة الأولى إلى كشف هشاشة فئة كانت تدعي الحداثة والتنوير، إنها رواية تغوص في عالم المرأة وتسرد الظلم والاضطهاد الذي سيجبه النظام الذكوري.

كلمات مفتاحية: الهشاشة، الحداثة، العنف، الذكورية، الغيرية.

Abstract: This essay tries to talk about the kind of fiction art that the novel Autobiographical. This vision comes as a strategy by which we wanted to bring out the novel The Walk is different from being an art that tells about others to a kind of archaeology whose mission is to dig depths of society It would not be surprising, therefore, that the lame Wasini in novel Isiskopia to expose the fragility of a group that claimed modernity and enlightenment, a novel that dives into the world of women and recounts the injustice and oppression that will guide the patriarchy.

Keywords: Fragility; Modernism; violence; patriarchy; otherness.

تقديم:

إن المتأمل في كتابات واسيني الأعرج الروائية يلمح ذاك الاهتمام الشديد بالسيرة ضمن أعماله الإبداعية، فرواية الأمير التي أعاد فيها واسيني كتابة السيرة الذاتية للأمير عبد القادر وذلك ضمن قالب سردي بأسلوب ملمس طرحت العديد القضايا التي شكلت جدلا كبيرا سواء فيما تعلق بشخصية الأمير عبد القادر أو ما ارتبط بتوجهات واسيني الأيديولوجية.

وبما أن القص السير ذاتي كما يقول جورج ماي في كتابه **السيرة الذاتية** هو وريث القص الروائي، عاد مرة أخرى هذا المبدع وكتب لنا سيرته الذاتية تحت عنوان **سيرة المنتهى** عشتها كما اشتهتني ويبدو التأشير الأجاسي هنا واضحا جدا وقد حمل عنوان **رواية سيرة**، وفي سنة 2018 وبعد أن كتب **نساء كازانوف** سلط واسيني الرؤى على شخصية أدبية كان لها أثرا كبيرا في الثقافة العربية وهي الأدبية **مي زيادة** وكتب لنا **سيرة غيرة** عن هذه المبدعة تحت عنوان **مي ليالي إيزيسكوبيا - ثلاثمائة ليلة وليلة في حميم العصفورية** - وهي الرواية التي تهمن في هذه الدراسة.

لن يكون تحليلنا هنا مرتبط في ثناياه بالخطوات التي قررها فيليب لوجون في كتابه **السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي**، بل سنعالجها من منطلق آخر أصبح مهما جدا في الروايات السير ذاتية وكذا الروايات السير غيرة، فهذا النوع الجديد من الكتابة ليس فقط مجرد **حكي يستثمر من التجارب الذاتية ويجولها لموضوع خاص به**، وإنما صار يعكس أيضا مختلف القضايا المرتبطة بالمجتمع عموما.

إن رواية **مي ليالي إيزيسكوبيا** ليست مجرد سيرة ذاتية عن هذه الأدبية بل هي سيميوتية سردية مفعمة بالمعرفة فواسيني يحفر كما جرت العادة دائما في أركولوجيا المجتمع المصري ويكشف تلك الهشاشة التي أصابت رائدي التفكير الحدائي في تلك الفترة، فهي **اركسترا تحكي لنا العطش الذكوري المتحمس لاضطهاد كل أنثى متشبثة بالحياة في مجتمع كما تقول مي زيادة في الرواية يشرب التخلف في كل ثانية، ويأكل نفسه بلا توقف**، في مجتمع لا يعرف طعم الانسانية، في مجتمع لم يسلم حتى مثقفوه بل أعمدته من أيديولوجيته السائدة والحديث هنا متعلق بطه حسين والعقاد وحتى الراجعي، أولئك الذين كانوا يدعون أنهم ذووا عقول تنويرية، ويرون أنفسهم مشبعين بثقافة لافونتين وديدرو وفلسفة هيغل وكاظم وديكارت، من كانوا يعتقدون أنهم أخرجوا العقل العربي من ظلماته التي أخرجت تقدمه، إذن هي رواية لا تحكي فقط التجربة الذاتية التي عاشتها مي زيادة، وإنما من جهة أخرى هي رواية تعزّي التفكير الذكوري الذي لازم المثقف العربي، والذي بقي مترسبا في أيديولوجيته التي تفوح بكل ماهو بطريائي، ولذا لن نستعين هنا بفيليب لوجون وجورج ماي، بل سنعتمد على تحليلات ميشال فوكو خصوصا عما تحدث عن **الجنون في العصر الكلاسيكي**، في زيادة اتهمت بالجنون ولم يترك لها أدنى فرصة للحديث والكلام عن نفسها فقد تسلط عليها زوجها وأصبح يتحدث نيابة عنها، بل أصبحت لدية القدرة في تحديد مصيرها الوجودي. ولا ننسى أيضا أنه يمكننا الاستعانة بتحليلات النسوية ومابعدا التي أفرزت مقولة الجندر الذي نستطيع من خلاله فضح الطريقة التي قسّم بها المجتمع الأدوار الجندرية المرتبطة بالجنسين. فالدراسات الجندرية كما تقول عائشة بوحناش في كتابها **قضايا الجندر في الرواية والنقد مابعد الكولونيالي هي "استراتيجيات جديدة للقراءة تعمل على تفكيك الخطابات المهيمنة ومضمراتها الأيديولوجية المتخفية كما تعمل أيضا على (...) قلب موازين القوة وتقويض مواطنها التي شكلت ثنائية الشرق والغرب والذكورة والأنوثة وساهمت في صناعة الأخيرة عبر أنظمة امبريالية عولمية استعمارية متقدمة."**

فكيف استطاع الروائي قبوله التجربة الذاتية لمي زيادة وجعلها لا تعكس فقط حياتها الخاصة، بل تعكس أيضا ثقافة المجتمع المتشبع بالذكورية؟ وما السبب الذي جعل واسيني لا يضع التأشير الأجاسي ويصرّح أن ما سيقال داخل المتن السردى هو سرد لتجربة ذاتية، فالعنوان يوحي أن ما بين أيدينا هو عبارة عن رواية وليست قص حياة مي زيادة؟ هل يمكن أن نقول أن واسيني هنا أيضا مصاب بحمى الثقافة الذكورية التي جعلته يبرز اسمه قبل أن يعطي المساحة الكاملة لمي زيادة؟ كلها إشكالات سنحاول التطرق لها ضمن المقال، ولكن قبل ذلك ارتأينا أن نقدم عنوانا تنظيريا نحاول من خلاله التفريق بين الرواية السير ذاتية والرواية السير غيرة.

01- الفرق بين السير ذاتية والسير غيرة:

ليس من السهل علينا في هذه الورقات الإحاطة بالمفاهيم المتعلقة بجنس الرواية السير ذاتية فما بالك بتقديم رؤية واضحة للفروقات بينها وبين جنس خرج من حضنها ويعتبر تنوعا منها وهو الرواية السير غيرة، فالنقاد وعلى رأسهم باختين احتاروا في وضع مفهوم دقيق للرواية عموما وذلك نظرا لتداخلها الأجاسي مع فن المسرح والشعر وبقية الأجاس الأخرى، ولكن مع ذلك ظهرت محاولات عدة حاولت وضع مفهوم للرواية السير ذاتية وعلى رأسهم فيليب لوجون في كتابه **السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأبدي** حيث يرى هذا الأخير أن الرواية الأوتوبوغرافي هي عبارة عن "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته"² وبالنسبة لي يمكن القول أن الرواية السير ذاتية هي عبارة عن أحداث يقدمها الكاتب عن نفسه يلخص فيها مجموع الانجازات والاختراقات التي مر بها في حياته اليومية، أما فيما يخص **الرواية السير غيرة** فهي على العموم فن سردي يحاول أن يحيط فيه الكاتب بسيرة شخصية من الشخصيات وينقل لنا ما مرّ به في حياته اليومية، وقد شهد السرد العربي الكثير من النماذج في هذا المجال من بينها ما قدمه لنا بنسالم حميش في روايته **العلامة** التي حاول فيها الحديث عن تجربة ابن خلدون وسيرته الذاتية، ولا شك أن أهم عنصر في هذا الفن السيري هو الموضوعية باعتبار أن الكاتب سينقل لنا حياة وتفاصيل شخصية عاشت تاريخا واقعا، وبالتالي لا يمكن للكاتب هنا أن يؤسس عوالم تخيلية مثلما يفعل في الرواية وهو إشكال سيصطدم به، ومن بين التعاريف التي نجدها عن الرواية السير غيرة ما قدمه شرف عبد العزيز عندما عرّف هذا النوع من الكتابة في كتابه **أدب السيرة الذاتية** بقوله هي "البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلّفه في جيله"³، وهو ما نحن بصدد فرواية **مي ليالي إيزيسكوبيا** هي رحلة قام بها واسيني من أجل العثور على مخطوط دوّنت فيه مي زيادة مختلف أشكال معاناتها في حياتها اليومية وفي محيطها الذي عاشت فيه، فهل تكنفي الرواية السير غيرة بنقل التجربة الذاتية أم أن لها موقفا من التاريخ ومن الصراع الطبقي الذي يعيشه المجتمع وخصوصا متعلق بثنائية رجل/امرأة.

02- تفكيك الخطاب الذكوري وهشاشة الحداثة في رواية **مي ليالي إيزيسكوبيا**:

شكل السرد الحداثي في مجمله نمودجا خلق مجموعة من التصورات التي أغرقت التفكير البشري في الإقصاء والتمهيش، فالسرديات الكبرى بتعبير بودريار التي صاغتها التجربة الحداثية جسدت ثقافة المركز التي أتت ما بعد الحداثة من أجل تفكيكها، وإحداث خلخلة في بنيتها الفكرية، فقد صاغت ما بعد الحداثة مفاهيم جديدة قوضت من خلالها تمركز الفكر الغربي حول اللوغوس (المركز حول العقل) الذي يعتبر في النمودج الحداثي مصدرا للحقيقة، ولذلك

كان التفكير والشك والريب والتمرد و الفوضى، مفاهيم مهمة في تصورات مؤسسي ما بعد الحداثة، ولم يقف هذا التأثير في ميدان الفلسفة فقط؛ بل تعداه إلى بقية العلوم الإنسانية الأخرى، من بينها الأدب الذي وجد في هذه المقولات خصوصا الرواية متنفسا جديدا، يعبر به عن مرحلة جديدة سبقتها التمرد والثورة على القيم التقليدية التي أرساها أدب الحداثة وعلى وجه الخصوص الأدب النسوي.

لطالما أعجب الكثير من القراء بالكتابات التي يقدمها ميشال فوكو، خصوصا عندما يغوص في الخطابات المسكوت عنها، فما قدمت هذا المفكر عند حديثه عن المؤسسات والدور الذي تلعبه في تذويت المجانين والمساكين وكل الأشياء التي تنسجها الكلمات جعلنا نقف عند رواية من بين أبرز الروايات التي كتبها الروائي الجزائري واسيني الأعرج المولع بالبحث في أركيولوجيا التاريخ بلغة سردية مفعمة بالمعرفة.

طرح ميشال فوكو في مختلف دراساته الفكرية مفهوم الخطاب، الذي يعتبر مفهوما واسعا أراد من خلاله فوكو فضح كل أشكال القمع التي تمارسها المؤسسات من أجل الهيمنة والتسلط بالمفهوم الغرامشي، باعتبار أن المدار الأساسي للخطاب كما يوضح ذلك فوكو في كتابه "مفهوم الخطاب" ليس موضوع السلطة وإنما المدار الحاسم للسلطة⁴، ولهذا يؤكد على أنه لا بد لنا من إعادة النظر في الحقيقة المرتبطة بأنساق السلطة وكيفية تشكلها داخل مؤسسات المجتمع.

لم تتوانى فيما بعد الدراسات النسوية في الاستعانة بهذا المفهوم وبمختلف ما طرحه فوكو ورواد ما بعد الحداثة، خصوصا جاك دريدا، من أجل فضح تلك المركزية التي صنعها الرجل في لحظة من لحظات التاريخ، واقتنعت بها المرأة بوصفها موضوع يتحكم فيه الرجل، ويعالجه وفقا لرغباته التي يزعم أنها عقلية. وهي نقطة سنعالجها فيما بعد داخل الرواية التي ركزت كثيرا على هذا الجانب، من خلال محاولة مي ممارسة **البوح الداخلي** الذي سبب مرارته مجتمع ذكوري مسيح بكل ما هو دوغمائي.

ومن هنا أصبح الشغل الأساسي للدراسات النسوية هو إعادة النظر في تلك الاستمولوجيا الذكورية التي لم تستغل المرأة فقط؛ بل شجعت على ذلك الاستغلال، باعتبار أن الخطاب كما يرى فوكو وظيفته الأساسية هي الحفاظ على أشكال الخطاب، وضمان البقاء على تملكها، وتعديلها وفقا لمطالبات المؤسسة⁵ فخرجت بذلك المرأة كما يقول عبد الله الغدامي من كونها كائن طبيعي إلى **كائن ثقافي** «جرى استلابها ونحس حقوقها لتكون ذات دلالة محددة ونمطية. ليست جوهرًا ولا ذاتًا وإنما هي مجموعة صفات.»⁶

فالمرأة تريد استرجاع تلك الإنسانية التي عصفت بها لغة الرجل، وأدخلتها في كهف لا تحمل دلالاته إلا معنى الظلمة التي لن يرى نورها إلا إذا أراد الرجل ذلك، لكن في المقابل لن ترضى المرأة بهذه الظلمة بل تريد إنارة هذا الكهف بمشعل ثقافتها التي تريد أن تثبت من خلالها أن المعرفة الإنسانية، منذ أرسطو وأفلاطون هي مجرد انعكاس لثقافة الرجل السائدة.

ما تزال الكتابة النسائية أو الأدب النسوي، منذ أن دخلت المرأة عالم الكتابة يطرح إشكالات واعتراضات شديدة، كون الإبداع وخصوصا السرد مكن المرأة من الدخول لعالم الكتابة من أجل القضاء على الخلفية الثقافية التي عملت منذ القديم على إقصاء المرأة والإبداع الأثني، فالكتابة مثلت سلاحا فعالا للمرأة بلورت من خلالها ذاتها عبر الإبداع الذي رأت فيه ملجأ يخلصها من المركزية التي فرضها النظام والتسلط الذكوري ألم تقل مي زيادة عند بداية بوحها في ليالي العصفورية "موجودة وكأني لم أكن موجودة، لا أحد يسمعي، لا شيء الآن سوى أنني قررت الموت كتابة،

أكتب لكي استمر في، الغياب جهنم الأرض⁷ وبعدها تواصل الحديث قائلة "لا خيار لي سوى أن أكتب ...أكتب لا غير"⁸.

رواية **مي زيادة ليالي ليزيس كويا** هي سيمفونية تعزف لحن الحزن والألم، اركسترا تحكي لنا العطش الذكوري المتحمس لاضطهاد كل أنثى متشبثة بالحياة، فمنذ أن وقعت يداي على هذه الرواية أصابني نوع من القهر الداخلي لما يحدث كما تقول مي زيادة في «مجمع يشرب التخلف في كل ثانية، ويأكل نفسه بلا توقف»⁹. في مجتمع لا يعرف طعم الانسانية، في مجتمع لم يسلم حتى مثقفوه بل أعمدته من أيديولوجيته السائدة، تقول مي زيادة في هذا الصدد "ماذا أساوي كأمراة أمام ذكرورة متخلفة، حتى ولو كان مستواي عاليا؟ كنت أظن أن هذا لن يحدث إلا للأخريات، وها أنا ذي أواجه الكابوس نفسه. لا فرق بيني وبين أية امرأة عادية، بل حتى دون العادية، يكفي أن يكون المرء امرأة، ليجرد كليا من عقله وذكائه"¹⁰.

ويزداد الشرح عمقا عندما أقرأ بصريح العبارة ما قالته هذه المثقفة المقهورة بين حيطان العصفورية عن من كانوا يدعون أنهم ذو عقول تنويرية، من كانوا يرون انفسهم مشبعتين بثقافة لافونتين وديدرو وفلسفة هيغل وكاظم وديكارت، من كانوا يعتقدون أنهم أخرجوا العقل العربي من ظلماته التي أخرت تقدمه "كل واحد كانت له زوجته المصون أو حبيبته السرية التي يخاف عليها حتى من حضور الصالون، ولا يزعمه أبدا أن يغازلني، ويتقرب مني"¹¹ إنها قمة الذكورية التي تفوح بها ثقافتنا ويتسلح بها مثقفونا، هي ظاهرة منتشرة في كل الجامعات حيث تصبح الأنثى سواء الطالبة أو الأستاذة الأنيقة الجميلة جسدا تنخره تلك النظرات الذكورية، جسدا يُمنع به تلك العيون التي ترفض بل وتهجم بشدة إن كان الأمر متعلقا بزوجه "في الشرق ازدواجية كبيرة هي رهينة ثقافة فيها الكثير من النفاق والخوف من كل ما هو جديد. هو حدثي ومنفتح على الحياة، ولكن في الوقت نفسه يحافظ على رجل الدين المتخفي فيه، يتحكم في كل حياته. يلاقي ما لا يلاقي، لأن لكل واحد مسلكه، لهذا في لحظة من اللحظات قررت أن أغلق الصالون نهائيا"¹².

إن النقطة التي تجعلنا هنا نستدعي ميشال فوكو وخصوصا في ظل ما كتبه عندما تحدث عن الجنون في كتابه **الجنون في العصر الكلاسيكي**، هو مفهوم الجنون كما تحدث عنه الاثنان، فالجنون الذي فُرض على مي زيادة، هو نوع من المرض الذكوري الذي انتشر وباءه بين أفراد عائلتها وخصوصا عند زوجها وابن عمها جوزيف الذي استغل جيدا استنجاذ مي زيادة له وثقتها به، تلك الثقة التي أَلقت بها في غياهب العصفورية وعصفت بها في حجم الألم والحرمان. أما الجنون عند فوكو فالتسبب فيه هو تلك الخطابات التي نسجت حوله، وتلك الممارسات التي ضبطت هذا المفهوم، فالجنون بلغة فوكو هو مجموعة من الإكراهات حوّلها السلطة إلى ملف رقمي يقدم للمستشفيات، والتي من خلالها يقصى المجنون باعتباره إما شاذا أو ساحرا أو خارجا عن طبيعة الإنسانية، وبالتالي لم تترك له الفرصة كي يقول ما يقول، كما لم تترك لي زيادة أي فرصة للحديث والكلام عن نفسها، وإثبات أن ما يحدث هو جريمة في حق الإنسانية، وفي حق المرأة العربية، وفي حق ثقافتنا، فقد تسلط عليها زوجها وأصبح يتحدث نيابة عنها، بل أصبحت لدية القدرة في تحديد مصيرها الوجودي لا لشي سوى أنها امرأة ويجب بلغة ماركس أن تُمثل. إنها لا تستطيع أن تمثل ذاتها أو بلغة سبيفاك لا تستطيع الكلام، فمقدورها أن تبقى في نطاق التابع الذي لا يستطيع ولا يمتلك الوسائل التي عن طريقها يكتسب ويشكل مقاومة تخرجه من تبعيته التي قدّر لها النظام الذكوري أن تكون كذلك.

لجأت مي زيادة إلى الكتابة كدعة فعل تقاوم من خلالها وطأة ما يحدث لها، فهي لم تصدق نفسها أنه في يوم من الأيام سيتم الرّج بها داخل قضبان السجن وبأيّ تهمة بتهمة الجنون "لم أعرف أن للأقدار صناعها، ينشأ لك من هو الأقرب إليك لم أعرف أن الزمن القاسي كان يحبّي لي جنونا خاصا، قنبلة موقوتة محفوظة في الأعماق... لم أكن أعرف أن الجنون ليس دائما مشيئتك الفردية كما تصورها أي، يمكنه أن يأتي من سماء فارغة لانعرف سرّها"¹³، نعم لقد أصابني أيضا هذا النوع من الجنون الثاني الذي تحدث عنه مي وأنا أوصل قراءة "ليالي العصفورية"، هذه الملحمة التي تكشف عن الوجه الحقيقي لحداثة زعم صناعها ومريدوها أنها طريقنا لبناء المجد الحضاري، حداثة غاب فيها تماما جانبها البراكسيسي بمفهوم ماركس، ولم نرى إلا كتابات تدعو للانفتاح المحتفي بالأنا المتعففة في ذكورتها "يكاد كلهم لا يصلحون، لا أحد منهم كان قادرا على رؤية نفسه في مرآة العمر الهارب. مزهو بثقافته التي وضعته في الصفوف الأولى، وذكرته السخية"¹⁴. وتضيف إلى هذا قائلة "ماذا لو كتب طه حسين عني شيئا صغيرا، سطرين لا أكثر، حبا في هذه الصداقة؟ ماذا لو كان العقاد وفيها حب نبت كبيرا، قبل أن يموت بسرعة، قتلته غيرته المميته من جبران... لماذا صمت الرجل الذي علّمني الكثير، يقول لي إنه جن بي، مصطفى صادق الرافعي؟"¹⁵.

ولكن مع كل هذا، كان حضور الرجل في وريقات ليالي العصفورية في جانبه الإنساني واضحا جدا، فصوت أيها وصوت حبيبها جبران خليل جبران الذي تركت وفاته أثرا عميقا في حياة مي زيادة يقفز في كثير من السطور التي تستأنس بها مي لتتذكر تلك الأيام والليالي التي قضتها مع والدها، وبصحبة رسائل الشاعر المنفي جبران خليل جبران "كان سندي وصديقي وأخي الذي لم تلده أمي، وحبيبي الآخر، موته دمرني، ماتت بعده كل الأشياء حتى الحياة."¹⁶. إنها مقولة تؤسس لمفهوم السند وتبلور حقيقة أن النظام الذكوري ليس من صنع الرجل بل هو أيضا ضحية لهذا النظام، كون كلا الجنسين عاشا تنشئة اجتماعية واحدة كانت في أساسها مريضة وحالة غير صحية، إنها ثقافة تقوم على السيطرة والسلب واعتبار أن المرأة جنس ذو مرتبة ثانية/أدنى.

03- في الأيديولوجي في رواية ليالي العصفورية:

يقول عمر حلي في تقديمه لكتاب فيليب لوجون السيرة الذاتية "كيف نعتقد بأن الحياة في السيرة الذاتية هي التي تنتج النص في حين أن النص هو الذي ينتج الحياة، ثم ماهو موقع الميثاق من اللاوعي، من الصراع الطبقي ومن التاريخ؟"¹⁷، إنه إشكال اعترضنا ونحن بصدد قراءة ليالي العصفورية وقد سبق أن طرحناه في المقدمة ما السبب الذي جعل واسيني الأعرج بنبش في مخطوطة ليالي العصفورية ويبحث عنها؟ أجل نعلم جيدا أن من قرأ هذه الرواية سيقول أن واسيني قدم إجابة شافية تمثلت في ولعه بالبحث عن المخطوطات وخصوصا هذه المخطوطة، ولكن لحظة عثور واسيني عن المخطوطة كيف تعامل معها نعلم جيدا أنه بقي لثلاث سنوات يبحث عنها مع رفيقته روز خليل لكن السرعة في إعدادها ونشرها تطرح ألف سؤال للقارئ للوهلة الأولى عندما يلتقي بال مؤشر الأجناسي يعتقد أن هذا العمل هو رواية كتبها واسيني لكن لما ندقق في الأمر نجد عبارة عن سيرة ذاتية مكتبة تعرضت في مجتمعا الذكوري لمعاينة واضطهاد طوال حياتها لا لسبب سوى أنها مثقفة "كنت أتمنى أن أقول له من كل قلبي. أتركني يا با على سبعتي الأولى فقد ولدت حرة، على تربة حرة، وتأكد أنني لن اختار إلا الحياة. الحياة وحدها بكل حقائقها وأوهامها، كانت رهاني وحيي الأوحده. عندما كنت أقرأني في أوقات فراغي، لا أجد شيئا شد اهتمامي مثل الحياة والحريّة"¹⁸.

إن سيطرة الأنا السردية في المقدمة التي كتبها واسيني عن حيثيات عثوره عن ليالي العصفورية تبدو واضحة جداً، فقد خلق واسيني لذاته مساحة تنسي القارئ الدور الذي لعبته روز خليل في البحث عن هذا المخطوط، نعم تسللت رائحة الذكورية التي عزم واسيني فضحها في كل رواياتها وفي هذا المخطوط، لأن غرضه الأول والأخير من نشر هذا العمل هو تبين مدى هشاشة المشروع الحدائفي في الثقافة العربية «جعل جنونها المفترض الكثيرين من أصدقائها أو من ظنهم كذلك، ينقلبون ضدها وكأن الجنون جاء ليرضي أعماق جباة مريضة، لا ترى في المرأة إلا أداة متعة لا اعتبار وجودها لها، كل ما كان يبدو صداقة في الخارج، كان يخفي عقداً ذكورية، لم تمحها للأسف لا الحدائفة، ولا الفكر التقليدي، الانقلاب ضدها من طرف أصدقائها، دليل قاطع على هذا التناسي الموجه»¹⁹، إنه لحقاً أمر موجه ولكن نحن كقراء لنا أيضاً الحق في قراءة القراءة وواسيني في نظرنا أقصى هنا بدوره المرأة التي أراد الدفاع عنها من خلال هذه المخطوطة، فقد أسند لنفسه كل شيء حتى فراغات المخطوط هو من تولى أمر ترقيعها، هل واسيني حقاً هو المثقف الذي تحدث عنه مي زيادة عندما قالت في الأخير أعلم أن هناك مثقفاً سيأتي في يوم ما وينصر قضيتي، هل حمل واسيني نفسه هذه المهمة وأراد أن يكون هذا المثقف الذي آمنت به مي وهي في حجم العصفورية؟ إنه لا إشكال محير صادفني وأنا في صدد قراءة هذا العمل.

لما لما كانت النسوية تدعي أنها في مضامينها الفكرية تسعى إلى نصرة قضية المرأة في الثقافة العربية، ونحن لا ننكر هذا الأمر لكن ما شغل بالنا أين كنا هؤلاء من قضية مي زيادة؟ ما السبب الذي جعلهن يتناسين هذه القضية؟ لماذا بالضبط ترك الأمر حتى أتى واسيني ونبش في سيرتها واكتشف أن أهم مخطوط في سيرتها لم يندثر وإنما مزال موجوداً ولا بد من البحث عنه؟ إنه لأمر مؤسف أن تحاول النسويات العربيات التركيز على ذواتهن وتجاربهن الخاصة دون التفطن لسيرة نسويات مثقفات عانين من كل أشكال الاضطهاد والظلم في المجتمع العربي، وخصوصاً قضية مي زيادة لأن الاضطهاد الذي تعرضت له لم يكن فقط من قبل عائلتها بل تعرضت أيضاً لاضطهاد لا يمكننا أن نتوقعه ولا يمكننا حتى أن نفكر فيه وهو اضطهاد النخبة المثقفة التي كانت دائماً تدعي الوعي بالمسائل التي تخص المرأة، وفي نظرنا اكتشاف واسيني لهذا المخطوط، هو ضربة موجعة للنسويات لأننا سنعود من جديد لفرضية أن المرأة لن تعرف النور إلا إذا أراد الرجل ذلك، فهو وحده الكفيل بإعطاء نفس جديد لمن تريد النسوية جعله متساوياً مع الرجل، إنه بالنسبة لنا فخ إيديولوجي وقعت فيه النسوية العربية، وهو تقريبا الفخ نفسه الذي وقع فيه واسيني عندما حاول عن طريق المؤشر الأجاسي الذي وضعه على غلاف الرواية/المخطوطة أن يوهم القارئ أن ما هو بصدد قراءته هي رواية وليست مخطوطة مي زيادة ليالي العصفورية، سيقول قارئ أن العنوان كفيلاً وهو عتبة مهمة تنبهنا أن ما قدمه لنا واسيني هي معاناة مي زيادة التي طوتها الذكورة المتعنتة في المجتمع العربي، إذن قارئ واسيني يجب أن يكون مثقفاً أو بالأحرى أكاديمياً حتى يتيقن أن ما هو أمامه ليست رواية بمفهوم هذه الأخيرة وإنما هي سيرة غريبة لايزيسكوبيا.

خاتمة:

إن ما حاولنا تقديمه في ما سبق كان عبارة عن قراءة شغلت بالنا منذ أن وقع هذا العمل بين يدينا وما وصلنا إليه من تحليل لا ينقص من قيمة ما قدمه لنا واسيني من أجل إيصال هذا العمل الفني فهو قيمة مضافة للمكتبة العربية ولثقافتنا، وهو من جهة أخرى بمثابة انتصار حققته مي لأن واسيني من خلال ما قدمه أنصفها وأنصف قضيتها، وحرصنا نحن بالدرجة الأولى على تقديم قراءة لهذا العمل هو محاولة لتبيين أن الرواية السيرة ذاتية لا تسعى فقط إلى سرد ما مرّ

به الشخص في حياته اليومية، وإنما لديها أيضا موقف من التاريخ ومن الصراع الطبقي وهي تسعى أيضا بدورها إلى كشف المضمّر في المجتمعات وتفكيك الخطابات المؤدّجة التي تحكمه، وخصوصا هذه الرواية التي حاولت فيها مي أن تضرب عصفورين بحجر واحد، فمن جهة نقلت لنا تجربتها ومعاناتها في مجتمعتها، ومن جهة أخرى عزّت المشروع الحدائي العربي الذي ادعى فيه مثقفونا أنهم تنويريون.

- 1- عائشة بوحناش: قضايا الجندر في الرواية والنقد ما بعد الكولونيالي، دار فهرنهايت 451، الجزائر، ط1، 2023، ص ص 08-09.
- 2- فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1994، ص 8.
- 3- شرف عبد العزيز: أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية، مصر، ط1، 1992، ص ص 3-4.
- 4- ميشال فوكو: مفهوم الخطاب، تر: محمد سبيلا، دار التنوير، دط، دت، ص 49.
- 5- ميشال فوكو: مفهوم الخطاب، ص ص 23-24.
- 6- عبد الله الغدائي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط3، 2006، ص 16.
- 7- واسيني الأعرج: مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية، دار الآداب، بيروت، ط1، 2018، ص 55.
- 8- المرجع نفسه، ص 56.
- 9- المرجع نفسه، ص 81.
- 10- المرجع نفسه، ص 90.
- 11- واسيني الأعرج: مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية، ص 111.
- 12- المرجع نفسه، ص ص 111-112.
- 13- واسيني الأعرج: مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية، ص 107.
- 14- المرجع نفسه، ص 112.
- 15- المرجع نفسه، ص 147.
- 16- واسيني الأعرج: مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية، ص 130.
- 17- فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ص 17.
- 18- واسيني الأعرج: مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية، ص 133.
- 19- واسيني الأعرج: مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية، ص 133.

قائمة المصادر والمراجع:

- فيليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1994.
- شرف عبد العزيز: أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية، مصر، ط1، 1992.
- ميشال فوكو: مفهوم الخطاب، تر: محمد سبيلا، دار التنوير، دط، دت.
- عبد الله الغدائي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط3، 2006.
- واسيني الأعرج: مي ليالي إيزيسكوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في حجم العصفورية، دار الآداب، بيروت، ط1، 2018.
- عائشة بوحناش: قضايا الجندر في الرواية والنقد ما بعد الكولونيالي، دار فهرنهايت 451، الجزائر، ط1، 2023.